قسطنطين زريق

١٩٠٩– ٢٠٠٠

من يعرف قسطنطين زريق جيداً يعرف كيف انه تميز في أبحاثه التي تضمنتها كتبه، بالجد والجهد، وباستشراف المستقبل، وبالإبتعاد عن البكاء على الأطلال. وكانت ابرز مساهماته في البحث عن مستقبل أفضل لأمته العربية تلك التي تضمنتها كتبه التي أصدرها في السنوات الأخيرة التي سبقت وفاته، أي السنوات التي كان يقترب فيها من التسعين ويتجاوزها. وكان أهم تلك الكتب كتابه "ما العمل"، الذي يقدم فيه أفكاره حول النهوض بالأمة في شروط تاريخية جديدة ملأى بدروس الماضي وبتجاربنا فيه، ومفتوحة على التحولات الكبرى التي يشهدها العالم المعاصر. لكنه رحل قبل ان يستكمل ذلك المشروع في عناصره الجديدة. وحين رحل كان، في نظر الذين تابعوا تحولاته الفكرية، شابا في الثالثة والتسعين من عمره. وكان أبرز مظهر للشباب فيه عقله المنفتح على متغيرات العصر في اتجاهاتها المتناقضة وذهنه المتوقد المليء فتوة، وفكره المستنفر الباحث بعمق وقلق واستشراف عن أفضل الوسائل والصيغ والأدوات لتجديد الحياة العربية. إذ كان قسطنطين زريق يرى، من على قمة تجربته الطويلة والغنية التي كادت تقترب من ثلاثة أرباع القرن، أن الفكر القومي الذي كان هو أحد أعلامه البارزين لم يعد صالحاً في صيغه القديمة لتحقيق أي تقدم للأمة العربية، إن لم يكن قد صار عائقا حقيقياً أمام هذا التقدم. وهو استنتاج لا يحتاج القارىء لكتابات مفكرنا الكبير لكبير جهد من أجل أن يراه ويتبينه بوضوح. ولعل أهم مكان في كتاباته الذي تبرز فيه أفكاره واستخلاصاته المهمة هذه هو سيرته الفكرية التي كتبها بقلمه في الأعوام الأخيرة السابقة على رحيله. فقد أراد منها أن تكون، عن قصد منه أو عن غير قصد، بمثابة وصيته الأخيرة للأجيال الجديدة. ومعروف أن زريق، الذي ساهم مع بعض زملائه في الثلاثينات من القرن الماضي في تأسيس حزب قومي سري لم يعش طويلاً، لم ينتم بعد ذلك إلى أي من الأحزاب القومية التي تأسست فيما بعد، ولم يحتل

منصباً وموقعاً قيادياً في أي من الحركات السياسية التي عايشها وصادق زعماءها وكتب عنها وعنهم.

ولد قسطنطين زريق في دمشق في عام ١٩٠٩ في حي القيمرية أحد أحياء دمشق القديمة في كنف أسرة أرثوذكسية من الطبقة الوسطى. تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس دمشق. ثم التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت لدراسة الرياضيات. ثم حوّل مجال دراسته إلى التاريخ ونال درجة بكالوريوس في الآداب في عام ١٩٢٨. سافر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأميركية ملتحقا بجامعاتها وحصل على درجة الدكتوراه في التاريخ في عام ١٩٣٠ من جامعة برنستون. وعاد بعد تخرّجه إلى الجامعة الأميركية في بيروت حيث عمل كأستاذ مساعد ثم أستاذ في عام ١٩٤٢، ثمّ نائبًا للرئيس في عام ١٩٥٢، ثم رئيساً بالوكالة ورئيساً بين الأعوام ١٩٥٤و١٩٥٧. كما عمل في جامعة دمشق وفي جامعتيّ كولومبيا وجورج تاون في الولايات المتحدة الأميركية كأستاذ زائر. التحق لفترة قصيرة بالسلك الدبلوماسي السوري بعد الحرب العالمية الثانية حيث عمل كمستشار أول، ثم كوزير مفوض في السفارة السورية في واشنطن. وكان خلال تلك الفترة عضواً مناوباً لسوريا في مجلس الأمن بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٧.

سمعت باسم قسطنطين زريق لأول مرة في أواخر أربعينات القرن الماضي، وتحديداً بعد وقوع نكبة فلسطين. وكنت قد بدأت أتجه نحو اليسار الإشتراكي تحت تأثير الخيبة التي ولدتها في عقلي وفي وجداني تلك النكبة. اذ لم اكن أرى أي مبرر لهزيمة ستة جيوش عربية وجيش مقاومة شعبي امام العصابات الصهيونية. لذلك التقيت مع قسطنطين زريق بالفطرة، أي من دون أن أحاول تحليل معنى النكبة والغوص في البحث عن معرفة الأسباب التي أدت إلى وقوعها، ومن دون تحديد، أو محاولة تحديد أشكال مواجهة نتائجها. ذلك كان موقفي من النكبة وكان لقائي بالفطرة مع قسطنطين زريق. أما هو فقد حاول في كتابه "معنى النكبة" الذي صدر

في عام ١٩٤٩ أن يقدم أفكاراً أولية حول ما عجزت أنا الشاب عن القيام به. وكان الكتاب اول تعبير فكري عن الخلل الذي شعر ذلك المفكر الكبير بوجوده في فكر وممارسة النخب السياسية العربية، احزابا ومثقفين، التي كانت تتصدى لمهمة تحقيق النهضة العربية بعد حصول عدد من بلدان المشرق العربي على استقلالها السياسي.

كنت في ذلك الحين قد بدأت أتعرّف على أسماء المفكرين العرب الماركسيين والقوميين. وكان من بين أبرز المفكرين القوميين إلى جانب قسطنطين زريق ساطع الحصري. أما المفكرون الماركسيون فكانوا موزعين بين قادة أحزاب شيوعية يمتلكون قدراً من الثقافة الماركسية السائدة والمعممة من قبل المركز السوفياتي، وبين باحثين مرموقين تخصصوا في نقل النصوص الماركسية إلى العربية، وبين مجتهدين قلائل من أمثال رئيف خوري في لبنان، الذي كان قد أصدر في عام ١٩٤٣ كتابه المهم "الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية فيه".

لا أذكر أنني قرأت أياً من كتابات ساطع الحصري وقسطنطين زريق في ذلك الحين. لكن كتاب قسطنطين زريق عن معنى النكبة الذي وصلتني اصداء افكاره النقدية قد جعلني اقرب اليه من ساطع الحصري. ولم أقرأ كتاب رئيف خوري الذي يناقش فكر قسطنطين زريق الا في وقت متأخر. وإذ أسأل نفسي اليوم لماذا كان ذلك الإحجام عندي عن قراءة تلك الكتب والكتابات لمفكري تلك الحقبة من القوميين، فاني لا أجد جواباً حقيقيا ولا أجد تفسيرا إلا في ما أسميه العصبية الايديولوجية التي كانت تجعل الشيوعيين والقوميين في موقف الخصومة المبدئية منهم إزاء الآخرين وإزاء أفكارهم وسياساتهم وبرامجهم. وكان ذلك واحداً من أمراض تلك الحقبة من تاريخنا.

من مفارقات تلك الحقبة في حياتي أنني، برغم ذلك الموقف الانفعالي الذي أشرت إليه من الفكر القومي ومن رموزه، كنت أتابع باهتمام نشوء وتطور الحركات القومية القديم منها

والحديث، سواء منها تلك التي كانت قد نشأت في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي (عصبة العمل القومي التي كان علي ناصر الدين أحد أبرز مؤسسيها ورموزها، وحزب "النداء القومي" الذي ارتبط تأسيسه وتطوره باسم كاظم وتقي الدين الصلح) أم تلك التي أدت في اواخر الأربعينات وأول الخمسينات إلى ولادة حزب البعث العربي الاشتراكي، بالاندماج بين حزب البعث العربي بقيادة ميشال عفلق والحزب الاشتراكي العربي بقيادة أكرم الحوراني، أم تلك التي أدت في مطالع خمسينات القرن إلى ولادة حركة القوميين العرب كحزب قومي مختلف عن حزب البعث ومبادئه وأكثر انحيازاً للفكر الاشتراكي بمرجعيته الماركسية. وكنت ا سمع بزكي الارثوزي، احد رواد الفكر القومي المعروف منذ اوائل الاربعينات من القرن الماضي، من خلال استاذي في مرحلة الدراسة المتوسطة (١٩٤٥ . ١٩٤٦) انعام الجندي. وكنت أرى في ذلك التطور وفي تلك التحولات المرافقة له تعبيرا معينا عن ردود الفعل على الخيبات والنكسات والنكبات التي كانت تتوالد بعضها من بعض. وكنت على علاقة مع بعض رموز تلك الحركات، بفعل انخراطي المبكر في العمل السياسي. وكثيرا ما كنت ألتقي في مكاتب جريدة "الحياة"، عندما كنت أذهب لزيارة أنسبائي حسين وكامل مروة، وشقيقي محمد حسين وبعض اصدقائي العاملين في التحرير والإدارة، بعلي ناصر الدين وأكرم زعيتر وبآخرين ممن كانوا يمثلون التيار القومي العروبي في ذلك التاريخ.

كان الشيوعيون اللبنانيون في ذلك الحين أقل تشنجاً وتطيراً في مواقفهم إزاء الأحزاب القومية مقارنة ببعض أشقائهم في الأحزاب الشيوعية العربية. ويعود السبب في تلك المرونة في موقف الشيوعيين اللبنانيين إلى أن لبنان كان قد تحوّل منذ مطلع الخمسينات المركز للنشاط السياسي في اتجاهاته المختلفة يساراً ويميناً، ضد الأحلاف السياسية والعسكرية الغربية من جهة، ومركزاً لتنظيم الحركات القومية ولترتيب الانقلابات العسكرية من جهة ثانية. يضاف

إلى ذلك تحوله إلى مركز لمظاهرات التضامن مع الحركات الاستقلالية في بلدان المغرب العربي خصوصاً، الجزائر وتونس والمغرب، إضافة إلى اليمن في شطريه الجنوبي والشمالي. وكان بعض تلك الحركات يتحول إلى ثورات تحرر وطني مثل ثورة الجزائر والثورة في اليمن الجنوبي والثورة في ظفار. وكان ذلك الأمر يفرض على المختلفين عقائديا من الشيوعيين والقوميين، بمدارسهم المختلفة، ان يعملوا معا ويناضلوا معا من دون ان يخفوا اختلافاتهم وتمايزاتهم وخلافاتهم وصراعاتهم السياسية والايديولوجية.

كان اسم قسطنطين زريق في تلك الحقبة قد بدأ يحتل موقعا متقدماً بين المفكرين القوميين. فالى جانب كتابيه الأول والثاني "الوعي القومي" و"معنى النكبة" اللذين صدرا في آخر الأربعينات فقد صدر له كتاب "أي غد ؟" في عام ١٩٥٧. كما صدر كتابه المهم الذي ظلّ يعتبره هو احد أهم كتبه "نحن والتاريخ " في عام ١٩٥٩. لكنه لم يكن في حقبة الخمسينات وما بعدها الوحيد بين المفكرين القوميين. إذ صعد إلى ذلك الموقع عدد جديد ومهم من المفكرين. و صارت للفكر القومي مدارس مرتبطة بأشخاص وبأحزاب وبزعامات. وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد تحوّل بعد ثورة ٢٣ يوليو إلى البطل القومي الأول في العالم العربي. لكن قسطنطين زريق كان أكثر تميزا من سواه من اولئك المفكرين الجدد ومن المفكرين السابقين. ذلك ان انشغاله بالقضية القومية كان أقل تقيدا بالشعارات وأقل صنمية من كثيرين آخرين. كان في كثير من همومه القومية يجمع بين صوفية المتصوفين، ورومانسية الثوريين وعقلانية المفكرين المحدثين. إذ كان يسعى ويحلم ويناضل بسلاح الفكر من أجل إخراج الأمة من سباتها إلى نهضة علمية وثقافية وحضارية وأخلاقية، تحررها من تخلفها الاقتصادي والاجتماعي والحضاري، ومن فساد حكامها ومن عبثهم بمصائرها. كان في عمله الفكري المبدع ذاك ينتقل من حقل للنقاش إلى حقلٍ آخر، ومن ميدان للبحث إلى ميدانٍ آخر، ومن

جبهة للصراع مع الذات والآخر إلى جبهة أخرى. وكان بمقدور المتتبعين لكتاباته وأبحاثه أن يلحظوا ذلك من دون عناء. وهي، في أي حال، موجودة في سيرته الفكرية التي لخصها في صيغة مقدمة للمجموعة الكاملة لمؤلفاته التي اصدرها مركز دراسات الوحدة العربية في عام ١٩٩٤. وهو يشير في سيرته بوضوح وبجرأة إلى أنه لم يجد أي غضاضة في التحوّل من يقين إلى يقين آخر عندما كانت تنضج الشروط لذلك، أي من اقتناع فكري إلى اقتناع فكري آخر، ودائما باسم القومية وباسم مصالح الأمة في التقدم . وكان يتنقل من تحليل واستنتاج إلى تحليل واستنتاج آخرين لكي يكون فكره اكثر تطابقا مع الشروط التاريخية الجديدة. ولعل مصدر ذلك الاستعداد عنده لكل تلك التحولات هو ايمانه المطلق بالطابع العلمي للمعرفة، أي معرفة، وإصراره على دعوة العرب لامتلاك المعارف من مصادرها الأصلية حيثما وُجدت، من دون أي خوف أو تردد باسم الحفاظ على الذات القومية. وكان يرى في السياق ذاته ان تعميم التعليم في مستوياته وفروعه كلها يستحق أن يكون هدفا بذاته كمصدر من المصادر الأساسية لبناء القاعدة المادية والروحية والمعرفية والأخلاقية لتحقيق التقدم للبلدان العربية بلداً بلداً وللأمة العربية برمتها. وقد حرص في كل كتاباته على تذكير العرب بأنهم جزء من عالم كبير، وليسوا جزيرة معزولة في محيط، وانهم لن يحققوا تقدمهم الا اذا تقدموا في العلاقة مع هذا العالم وبالتفاعل معه، ومع تحولاته ومع انجازاته. وإذ يؤكد زريق ذلك ويصرّ عليه فإنه لا يغامر في التفريط بهويته القومية وبالخصوصيات التي يعرِّف العربي نفسه بها، مثلما يفعل كل انسان في العالم ينتمي إلى قومية ما. ذلك ان الحفاظ على الهوية القومية عند قسطنطين زريق لا يعني مطلقا الانغلاق على الذات. بل هو يرى عكس ذلك تماما. فبمقدار ما يكون الارتباط بالهوية حقيقيا وغير عصبوي منغلق على الذات تكون الشروط متوفرة لإغناء هذه الهوية ولإغناء المنتمين اليها بمنجزات العصر ويكون اصحاب تلك الهويات قادرين على الإسهام في تقدم

الحضارة الإنسانية وتطورها. وهو ما يُعتبر في فكر قسطنطين زريق ميزة يتقدم بها على كثيرين سواه من رواد الفكر القومي، القدامى منهم والمحدثين. إذ هو يرى إلى الثقافة والمعرفة والحضارة والى مجمل العناصر التي يتكون منها التقدم الإنساني على انها ظاهرة شمولية. كما يرى إلى الفعل الإنساني بكل اجزائه ومكوناته وفي كل مراحل تطوره حاملا للعناصر التي يُصنع بها مستقبل كل شعب وكل أمة ويصنع بها مستقبل البشرية جمعاء.

إلا أن من سمات زريق، إلى جانب ما أشرت إليه من تميز في فكره التنويري، إنه كان مهموما بإشاعة الديمقراطية وبالدفاع عنها وعن قيمها. وهو يقول في كتاباته انه اكتشف اهمية الديمقراطية خلال وجوده في الغرب وخلال تعمقه في معرفة اسباب تقدم البلدان الغربية وتطورها.

ولقد لاحظتُ وأنا أتابع كتاباته، لا سيما كتابه الأخير "ما العمل؟"، أنه يخاطب الأمة العربية انطلاقا من الحالة العامة التي هي فيها، حالة التخلف والتمزق التي جعلت شبابها ينكفئون عنها وعن التزاماتهم إزاء قضاياها الراهنة والمستقبلية. وهو، إذ يدخل في تعريف ظاهرة الإنكفاء هذه، فانه يسترسل في تعداد أنواع هذا الانكفاء، ويسمّي اصحابها بالأسماء التالية : المهزومون والغائبون والقدريون والهاربون والندّابون واللوّامون والمستهزؤون والمستغلون. ويُعدد، في مقابل هذه الأنواع من الانكفاء السلبي، أنواعا نقيضة لها، يشير إلى اصحابها بأسمائهم. وهم، بالنسبة اليه القوميون أولاً، والشيوعيون واليساريون والأصوليون. ويدخل في توصيف ظروف كل منهم تبريرا احيانا ونقداً احيانا، مع حفظ النسب بين كل منهم في هذين التبرير والنقد. ويشعر القارىء، من دون عناء، كم هو مهموم هذا المفكر العربي الكبير بحاضر أمته وبمستقبلها، مهموم إلى حدود التصوّر المثالي للحلول التي يقدمها للخروج من الواقع القائم

الحافل بالأزمات، في الاتجاه الذي يقود الأمة إلى مستوى أرقى وأكثر حرية وتقدما وأكثر نقاوة اخلاقية.

يقول في الجواب عن سؤال وجهه اليه محمود سويد في حواره معه الذي صدر في كتاب عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في عام ١٩٧٧: "... أما أمتنا العربية، فهي الآن في المرحلة الأولى من يقظتها ونهوضها لتجابه تحديثات هذا العصر. ولا تزال في بدء تكوّنها تعتريها أمراض العجز السياسي والتخلّف الاقتصادي والاجتماعي والتربوي التي ورثتها من قرون طويلة من الانحطاط والتدهور. فلا هي حصّلت المعرفة الضرورية للعيش في هذا العصر، ولا أحرزت الفضائل لحسن استخدام هذه المعرفة في سبيل التحرر. وهي تُعد اليوم بين المجتمعات "المتخلفة ". إن هذا الواقع القومي، في نطاق الواقع الإنساني. يحرك فيّ مشاعر التشاؤم والأسى. ولذا أعيش، في هذه الأعوام الأخيرة، في توتر دائم بين العوامل الإيجابية والسلبية الفاعلة في الحياة المعاصرة عامة، وفي حياتنا العربية، وفي توجهنا المستقبلي خاصة ".

لقد كوّنت في مخيلتي عن قسطنطين زريق قبل أن ألتقي به، صورة جميلة، من خلال متابعة بعض كتاباته في مرحلة التسعينات. وسرعان ما جاءت لقاءاتي معه لتعمّقها ولتؤكد الكثير من ملامحها. وقد جاءت تلك اللقاءات بعد اتصال هاتفي أجريته معه بواسطة صديقنا المشترك أنيس الصايغ. إذ توجهت اليه عبر الدكتور صايغ ثم بالهاتف بطلب المساهمة في محور عن أزمة الفكر القومي كان ماهر الشريف يعده لمجلة "الطريق" في أواسط التسعينات. اعتذر يومها عن المساهمة في المحور لأسباب صحية كما فهمت منه. لكنه رحّب بلقاء قريب معه. ثم مر عامان على ذلك الاتصال من دون أن نلتقي. وذات يوم، إذ كنت خارجاً من منزل صديقنا الأديب الراحل منير بعلبكي بعد تقديم التعازي بوفاته، التقيت أمام باب المصعد

بالدكتور زريق فعرّفته بنفسي. فكان شديد الترحيب بي وعاتبني على عدم الوفاء بالوعد باللقاء. واتفقنا على موعد ذهبت إليه برفقة صديقنا المشترك صقر أبو فخر.

كنت سعيداً جداً بذلك اللقاء. وندمت كثيراً لأنني لم أتعرف إلى هذا الانسان الكبير قبل ذلك. كان اللقاء غنياً بالأفكار التي تبادلنا النقاش بشأنها. وقد شملت مختلف جوانب الحياة في الوطن العربي، السياسية بينها والفكرية والحزبية. وقد بادرني في البداية بالسؤال عن مجلة "الطريق" وعن الحزب الشيوعي اللبناني وعن اليسار في الوطن العربي. وكان واضحا من أسئلته انه يتابع احوال أحزاب اليسار، ويتابع الأزمات العميقة التي كانت تواجهها. إلا أن أكثر ما لفت نظري هو قوله لي من موقع المفكر المسؤول بأن على اليسار الاشتراكي، الماركسي خصوصا، مسؤولية تاريخية في التصدي لمهمات الحاضر والمستقبل في أمتنا العربية. لكنه أردف مستفسراً باهتمام عن صحة هذا اليسار وعن الجهد المبذول لتحريره من أمراضه وعن المدى الزمني الذي تحتاج اليه عملية تحرير هذا اليسار من أزماته. وكنت صريحا إلى الحدود القصوى في الحديث إليه عن طبيعة هذه الأمراض والأزمات وعن جذورها محلياً وعالمياً. ثم توالت لقاءاتنا. وكانت النقاشات تزداد غنى بعد أن زوّدتُه ببعض كتاباتي وببعض أعداد من مجلة "الطريق"، وبعد أن اهداني عدداً من كتبه التي كان يعتبرها أساسية في تطور فكره. وكان أبرز تلك الكتب كتابيه "نحن والتاريخ" و"نحن والمستقبل". وفي أحد لقاءاتنا الأخيرة أخبرته عن الانطباعات التي تكوّنت عندي عن الاحتفال الذي جرى في قصر الأونسكو تكريماً له، والذي ساهم فيه عدد من كبار المثقفين العرب. وكانوا كثيرين. إذ قلت له بصراحة ومرارة بأن هذا الحشد من المفكرين العرب من الاتجاهات المختلفة لم يوفه حقه. واستثنيت من تلك المساهمات المساهمة التي قدمها تلميذه غسان التويني، فضلاً عن تلك التي قدمها هو في ختام الاحتفال.

لقد زادتني اللقاءات معه احتراماً وتقديراً لجهده الفكري ولعمق وصدق همومه وتوجهاته استشرافاً للمستقبل. ورأيت فيه بحق شاباً في التسعين من العمر. لذلك فقد حزنت كثيراً عندما التقيته في المستشفى قبل وفاته بشهر تقريباً. حزنت لأنه كان قد بدأ يدخل في اللحظات الأخيرة من حياته، إذ اعتذر في أكثر من مرة لعدم قدرته على استقبالي في منزله حتى بعد خروجه من المستشفى. وكان ذلك عشية سفري إلى كردستان العراق. إذ كنت أحب أن أناقش معه في قضية الأقليات القومية في الوطن العربي، بصفتها واحدة من أكبر وأعقد المعضلات التي واجهتنا وتواجهنا في عدد من بلداننا العربية. لكنه رحب بفكرة الزيارة إلى كردستان التي كنت شريكاً فيها مع عدد من المثقفين العرب وشجعني على الاهتمام بالمسألة الخاصة بالأقليات في عالمنا العربي كمسألة ذات أهمية قصوى.

وعندما قرأت بعض أفكاره في حوار محمود سويد معه وفي سيرته التي كتبها بنفسه حول هذه المعضلة وحول قضايا أخرى كبيرة، أدركت كم كان هذا المفكر عميقاً في تحديده للمشكلات الحقيقية التي تواجه بلداننا، وكم كان مسؤولاً بكل معاني المسؤولية والتزاماتها في تحديد الأسباب والمسبّبين بوجودها واستمرارها وبقائها.

يقول بالنص في حديثه مع محمود سويد عن الأقليات القومية: "... ذكرتُ في أكثر من مناسبة أن الوطنية، أو القومية، لا تتحقق إلا في مجتمع قد حصّل قدراً معيّناً من التطور الحضاري، وأنها ظاهرة من ظواهر الحداثة لا نجدها، كما نفهمها اليوم، في المجتمعات البدائية أو الدينية أو الاستبدادية التي سادت في العصور القديمة او الوسطى. وميزة المجتمع الوطني، أو القومي، إن قاعدته الأساسية هي المساواة بين مواطنيه في التشريع والتنظيم وفي الفرص والمنافع، مهما يكن عرقهم أو دينهم أو مذهبهم أو انتماؤهم السياسي أو الاجتماعي. فالمفروض في مجتمع كهذا أن تكون العصبية الوطنية، أو القومية، هي الغالبة والشاملة له،

والتي تنصهر فيها جميع العصبيات الأخرى المتفرقة والمفرّقة (...) ان الأكثرية والأقلية . كلتيهما . مسؤولتان في هذا المضمار. لكن الأكثرية، بسبب كثرتها، وبالتالي سيادتها في الحكم (بحسب النظم الديمقراطية) وفي الشؤون المدنية، هي المؤهلة لاحتضان الأقلية ولنشر الطمأنينة في صفوفها بشأن احترام حقوقها حاضراً ومستقبلاً. وهذه الطمأنينة لا تحدث ولا تستقر بالقوانين والأنظمة، وإنما نتيجة تصرف أرباب الحكم وغيرهم من أبناء الشعب. وعلى الأقلية، من جهة مقابلة، ألا تقف حجر عثرة في سبيل تطور الأكثرية والوطن عامة، وألا تعادي الأكثرية باللجوء إلى سند سياسي خارجي مثلاً (...) ولأننا . نحن العرب . لم نناضل بعد النضال الكافي لتكوين هذه القدرة، سواء في وطنياتنا القطرية أو في قوميتنا الجامعة، فإننا لا نزال نُمتحن يوماً بعد يوم بالعصبيات العرقية والدينية والمذهبية والعشائرية، المتجذرة في نفوسنا، والمانعة لتضامننا وتوحّدنا، والممزقة لكياننا والممعنة في ارهاقنا وتأخيرنا".

إلا أن ما هو أهم في نظري في موقف قسطنطين زريق من القضية القومية في بلداننا، هو الاستنتاج الذي توصّل إليه بعد تحديده لطبيعة الحقبة الراهنة عربياً ودولياً ولطبيعة الأزمة على هذين الصعيدين. اذ هو يحدد مفهومه للقومية العربية، بعد أن يجري مقارنات دقيقة مع الأمم الأخرى، مستنداً في ذلك إلى تجربته الانسانية الغنية والطويلة التي عايش فيها الواقع وتطور الأحداث في بلداننا وفي العالم. اذ هو يقول بالنص في سيرته التي كتبها بنفسه: "... على أن الفرق الأساسي البارز بين نظرتي إلى القومية العربية ونظرة الكثيرين من دعاتها والناطقين بها هو اعتباري أن هذه القومية ليست في الواقع موجودة الآن فعلاً، ولم تكن موجودة بمفهومها الحديث في أي من عصور تاريخنا. ان ما كان موجوداً منها في تراثنا، وما يتجلّى منها في خضم حياتنا الحاضرة، إنما هو مجموعة عناصر مؤهلة لتكوين قومية عربية حية فاعلة اذا عرفنا كيف نقتبسها ونطورها حسب متطلبات الحاضر والمستقبل. وكما قلت، وكتبت مرات،

ان القومية العربية، اذا أردنا استخدام المصطلح الفلسفي، هي قائمة فينا بـ"القوة"، أي امكاناً وقابلية، لا بـ"الفعل"، أي وجوداً وتحقّقاً، وبالتالي حيوية وتأثيراً. وهذا يعيدنا إلى ما قلناه سابقاً بشأن القومية عموماً من أنها لم توجد منذ بدء التاريخ ولن تدوم على ما هي عليه اليوم حتى نهايته، وإنما هي يقظة من اليقظات التي خبرها المجتمع الانساني والتي تشكل محطة هامة من المحطات التي تحلّ فيها المجتمعات الانسانية في مساراتها التاريخية الحضارية. انها حركة تطورية وتطويرية. ونوع (ومدى) تطورها وفاعليتها التطويرية يتوقف على نوع (ومدى) وعي أصحابها لها ومشاركتهم في غرسها وتعهدها. وقد تصورت ان مساهمتي في ميدانها يجب أن تتوجّه إلى توضيحها وإيقاظ الوعي بها، وإعداد الأشخاص ليكونوا مؤهلين لحمل مسؤولياتها. وقادني هذا التصور الراجع قسط كبير منه إلى مزاجي الخاص ونهجي الأكاديمي، إلى التركيز على هذا النوع من المساهمة بعيداً عن العمل السياسي والممارسة الحزبية والانشغال بمعالجة المشكلات الآنية والأحداث الجارية. ان مفهومي هذا للقومية هو الذي يدفعني إلى تجنب استعمال تعبير "الوطن العربي" وإلى ايثار تعبير "المجتمع العربي" الذي لم يتطور بعد، في نظري، ليصبح "وطناً" عربياً لـ"أمة" عربية قد تحققت فعلاً وأصبحت تطبع مجتمعها بطابعها الخاص وتوجه حركيته في طريق التكامل والتفاعل نحو غاياتها المرسومة".

خلاصة قراءاتي السريعة المبتسرة هذه لفكر قسطنطين زريق ولتحولاته تقودني إلى الاستنتاج الذي توصل هو إليه من موقعه ومن على قمة تجربته الطويلة الغنية، أنه بات على المفكرين العرب، ماركسيين من كل المدارس وقوميين من كل المدارس، أن يجهدوا في إعادة صياغة مفهوم جديد معاصر للقومية في بلداننا، وإعادة صياغة مفهوم جديد معاصر للعلاقات العربية– العربية في اتجاه وحدة من نوع مختلف عن كل الصيغ السابقة الفاشلة. ولعلّ هذا هو الدرس الأكبر الذي يجب علينا أن نستخلصه من قراءتنا لتاريخ وتراث هذا المفكر العربي الكبير.

والبداية الحقيقية في هذا الجهد انما تكون بخروج مفكرينا من النمط الحالي في ابحاثهم، على اهمية، إلى نمط أكثر راديكالية، إنما أكثر نقداً في قراءة الحقبة الماضية من تاريخنا، وأكثر استشرافا للمستقبل، اقتداءاً بما فعل مفكرنا الكبير قسطنطين زريق، واستكمالا لجهده العبقري في هذا المجال. وأنصح القراء لمعرفة المزيد عن سيرة هذا المفكر العربي الكبير بأن يقرأوا إلى جانب كتابه الأخير "ما العمل" الكتاب القيم الذي أصدره عنه عزيز العظمة بعنوان "قسطنطين زريق عربي للقرن العشرين".